لملمة فضيحة أبو غريب: عنصرية الإنكار

حين أقدمت **ستون دقيقة الثانية والواشنطن بوست** على نشر الصور الشنيعة التي التقطها جنود أمريكيون في سجن أبو غريب العراقي في أيار/ مايو 2004، أدرك أمريكيون كثيرون أن المهمة العسكرية في ذلك البلد كانت بعيدة عن أن تكون منجزة. كما أدركوا أنها لن تُنجز أبداً. أولئك الذين قالوا من البداية إن الغزو ليس له أي حظ في النجاح ربما أحسوا بأكثر أشكال صدق النبوءة مرارةً، لأن صور أبو غريب أثبتت ليس فقط أن الأمريكيين يتورطون في نوع من السلوك الذي تتعرض دول أخرى للإدانة (بل وللغزو أحياناً) تكراراً بسببه، بل تمخضت أيضاً عن هدم القاعدة الأخلاقية الرفيعة التي يحتكرها قادة أمريكا لاستخدامهم الحصري حين يرغبون في التباهي وإعطاء المواعظ حول انحطاط أطراف أخرى حجباً لفعلة لا أخلاقية معينة بستار من الأوهام (مثل غزو دولة ذات سيادة استباقياً). غير أن الغضب القومي الذي أثاره أبو غريب أثبت، آخر المطاف، انه كان مؤقتاً، لأن وسائل إعلام المحافظين الجدد سرعان ما عادت بعد بضعة أيام إلى التركيز على لا أخلاقية العرب ووسائل الإعلام الرسمية عموماً أحجمت عن تقديم التحليل المثير للاهتمام فأتاحت للموضوع فرصة الاختفاء.

حين كانت الفضيحة في أوجها، كان نقد الجمهور للجنود وللإدارة التي أرسلتهم لاحتلال العراق بالغ الحدة إلى درجة أن جورج بوش اضطر للظهور على شاشات التلفزيون العربية والاعتذار. في الأيام التي أعقبت إماطة اللثام عن الصور بدا الجميع تقريباً مذعورين وكانت إدانة الجنود سيئي التصرف حاسمة وبعيدة عن الانحياز. سارع سياسيون وشخصيات إعلامية إلى شجب فظاعة الممارسات، لا أخلاقيتها، الانحراف الذي كانت تمثله، وإخفاق قادة الجيش في الحيلولة دون وقوعها. غير أن عنصرية المخالفات نادراً ما ذُكرت. أميل إلى الشك في أن أكثر الساسة والمعلقين الإعلاميين التزموا الصمت بشأن احتمال وجود دافع عنصري وراء القرار الأمريكي الذي قضى باجتياح العراق. فقط الأكثر سذاجة منا كانوا سيعكفون على عقد المناقشات الجدية حول فضيحة أبو غريب دون معاينة الدور الحاسم الذي لعبه انتماء الضحايا العرقي في عمليات التعذيب كما في رد الفعل الأمريكي على تلك العمليات.

لعل إحدى الصور الأكثر رسوخاً ودواماً بين صور أبو غريب هي تلك التي تظهر ليندي إنجلندا وبيدها حبل أو رسن يلف عنق رجل عراقي عار، ممدد على الأرض يعاني من ألم واضح. تعابير انجلند تبدو شديدة الاستسلام، بل وحتى البلادة إذ تنظر بلا أي عاطفة إلى السجين العاري.

في برنامج **كاونترسبن** الكندي، نجحت شيرين رزاق من جامعة تورنتو في وصف هذه الصورة بأنها رمز بصري لـ"علاقة عنصرية".

عبر استخدام عبارة "علاقة عنصرية" تمكنت رزاق من التقاط الرمزية المكشوفة لأبو غريب تلك الرمزية التي دأبت وسائل الإعلام الأمريكية التعاونية، دون استثناء، على إغفالها. هوذا الرجل الأسمر الملتحي عارياً أمام سجّانته البيضاء. إنه مربوط برسن يشي بكل معاني الإذلال، أداة لا تستخدم عادةً إلا مع الحيوانات، وهو ممدد على الأرض رغم أن السجّانة البيضاء تبدو محاولة جعله يحبو على أربع، مجبرة الإنسان على تقليد أي كلب استكمالاً لعملية التجريد من الصفة الإنسانية.

ليس إظهار انجلند بجانب السجين إلا تعبيراً صادقاً عن مجمل غزو العراق حيث كان الهدف متمثلاً بإخضاع الناس السُّمر غير المتحضرين لخيرهم من قبل محرريهم الغربيين المتنورين (والمتمكنين). عملية الإخضاع ذهنية أيضاً لأن جزءاً كبيراً من السبب الذي مكّن بوش من الترويج لفكرة الاجتياح متمثل بصورة العرب الراسخة منذ زمنٍ بعيد بوصفهم عاجزين وبالتالي معتمدين على الوصاية الغربية، أأدركوا ذلك أم لم يدركوا. لابد من ضبط الإنسان الأسمر من قبل سيده الأبيض وجره عنوة في الاتجاه الذي يختاره السيد. ما من اتجاه إلا وينطوي على قدرٍ من الإذلال. إنه عارٍ أيضاً أمام السيد (السيدة)، مكشوف تماماً بعيوبه كلها دون أي أداة في حضرة سجانته المرتدية زيها الرسمي الكامل. في هذه الحالة تكون السيدة امرأة مما يزودنا بالمزيد من الصور الرمزية عن الخطاب الاستعماري الكولونيالي: كان الغزو تعبيراً غنياً بالمعاني عن الاهتمام بأولئك الذين ينطوي مستقبلهم على قدرٍ من الأهمية أكبر من أن يترك بأيديهم. حقاً، مصدوم أنا كثيراً بكون

صورة انجلند رمزاً للاستيطان عموماً، كما هو موجود منذ خمسة قرون. تنجح الصورة في التقاط الدقة المؤلمة لجملة الآثار الاستطرادية والمادية المترتبة على كل مهمة استعمارية نُفذت في أمريكا الشمالية، آسيا وأفريقيا. قد لا تكون انجلند أكثر من مجرد فتاة ريفية جاهلة نشوى بسكرة السلطة، غير أن مهندسي غزو العراق كانوا، كما سأبين لاحقاً، مدركين لجملة المعاني الرمزية الكامنة في العمق التي كانت انجلند ومعها أكثرية الجمهور الأمريكي غافلة عنها على ما يبدو.

لعل أحد الأسباب الرئيسة الكامنة وراء هذه الغفلة هو التحليل الضعيف لفضيحة أبو غريب الذي قدمه معلقو الصحف والرؤوس الناطقة عبر الكوابل. فالمعلقون والمذيعون الذين عبروا عن الغضب إزاء سلوك الجنود الأمريكيين في أبو غريب فعلوا ما فعلوه عموماً عبر التنظير لعملية التعذيب بوصفها انحرافاً أو شذوذاً لا علاقة له بجملة القيم الأمريكية المتنورة. وبتقديم مثل هذه التحليلات كان هؤلاء يُخْفون تماماً قضية الانتماء العرقي والدين ويوجهون اللوم دون وجه حق إلى ممارسي عملية التعذيب محملينهم مسؤولية كل ما حدث في أبو غريب. وفي الحقيقة فإن أكثرية محاولات عقلنة ما جرى في أبو غريب حاولت أن تشي، تلميحاً أو تصريحاً مباشراً، بأن الولايات المتحدة أكثر تحضراً من العالم العربي وهي متفوقة، بالتالي على هذا العالم. كان من شأن تحليلات أفضل أن تكون قد عاينت تاريخ الولايات المتحدة العريق في التعذيب ووجهت إصبع الاتهام إلى الخطاب العنصري الذي أَقْحَمَنا في العراق وفتح الطريق أمام تعذيب مدنيين عراقيين. أجدني ميالاً إلى أن أخطو

خطوة أخرى لأقول إن أبو غريب لا يكشف، آخرا لمطاف إلا عن المحصلة الحتمية لبناء دولة قومية على أساس الاستيطان، الإبادة، التهجير، الاستعباد، الفصل العنصري، الاستثنائية والمسيحانية (الخلاصية - المهدوية) الدينية. ذلك يعني أن سوء معاملة أناس من مرتبة دنيا، كما يُزعم، ليس، ولم يسبق له أن كان، انحرافاً أو شذوذاً؛ إن أي ولايات متحدة ما كانت لتكون موجودة لولا حصول إساءة معاملة أعداد لا تحصى من **الآخرين**. وما نسيان هذا التاريخ إلا تسويغاً له. وكما تبين لنا من فضيحة أبو غريب، فإن فقدان الذاكرة التاريخية أو الإنكار المتعجرف لا يمران، إطلاقاً، دون عواقب.

جاءت ردود وسائل الإعلام التعاونية على فضيحة أبو غريب مشحونة بعنصرية معادية للعرب، مضمرة ومكشوفة تجلت بثلاثة أشكال رئيسية (رغم أن مقاربات عنصرية أخرى كانت ظاهرة في الأسابيع التي أعقبت نشر الصور): بتجاوز تعذيب العراقيين في أبو غريب بوصفه مزاحاً سمجاً تجاوز الحدود قليلاً؛ بالقول إن السجناء الذين تعرضوا للتعذيب كانوا يستحقون ما أصابهم؛ وبتبرير سلوك الجنود عبر إبراز حقيقة أن سلوك العرب أسوأ من سلوك الأمريكيين. أتوقف عند هذه النقاط في الفقرات الثلاث التالية:

مجرد "مُزاح ثقيل"؟

إن جزءاً كبيراً من وسائل الإعلام اليمينية رد على الصور الملتقطة في أبو غريب عبر الاستخفاف بأهميتها، في مقاربة

شكلت تكملة لعملية تجريد العرب من إنسانيتهم الجارية أساساً على قدم وساق دون أدنى شك. بفصاحته ولبقاته النموذجيتين قال راش ليمبو: "اعلم أنك إذا نظرت، نعم إذا نظرت فعلاً، إذا نظرت إلى هذه الصور، أعني، لست أدري إذا ما كنت وحدي، فإنها لا تبدو إلا وكأنك إما مادونا أو بريتني سبيرز على خشبة المسرح. ربما أنا كذلك - وأحصل على منحة [الصندوق القومي للفنون] على شيء من هذا القبيل. أعني أن هذا شيء يمكنك أن تراه على خشبة المسرح في مركز لنكولن للصندوق القومي للفنون، ربما عن الجنس والمدنية - السينما"[1]. نجح توم ديلاي في تجريد ضحايا وحشية الشرطة إضافةً إلى العرب من إنسانيتهم: "أنا متأكد من أن لجاننا ستطرح الأسئلة الصحيحة.... غير أن تحقيقاً برلمانياً كاملاً - من شأنه أن يكون شبيهاً بالزعم بأننا بحاجة إلى تحقيق كلما تصرفت الشرطة بفظاظة في الشارع"[2].

يبدو أن تامي بروس تنجح في الإمساك بالتصور السائد لدى المحافظين الجدد عن أبو غريب إذ تقول: "أنا أرى أن أكثرية الأشياء التي حدثت في أبو غريب لم تكن إلا أشكالاً من المزاح السمج - لا أكثر ولا أقل. لأسابيع بقينا جميعاً هدفاً لتعنيف وسائل الإعلام الليبرالية وصراخها حول بشاعة الأحداث، حول كون تعرية رجل من ملابسه أمام امرأة "تعذيباً" وأن جعل سجين يلبس الملابس الداخلية النسائية "مرعباً"، وحول "التهمة" الأحدث المتمثلة بإجبار الرجال على ارتداء أغطية طويلة"[3]. ومع ذلك فإن بروس تعبر في مقالها عن التأييد للتعذيب مما يبقي كلامها عن "المزاح" بعيداً عن الإقناع، بل ويلقي بظلال الشك على استراتيجيتها في التعامل مع

العرب إذ تقول: "الآن، لا تخطئوا فهمي - أعتقد بأن كل شيء مسموح حين يتعلق الأمر بالقاعدة. لا يهمني إذا ما وضعتم ألبسة نسائية داخلية على رؤوسهم، أو بصراحة إذا قمتم بانتزاع عدد من أظافر أولئك المسؤولين عن القتل الجماعي من اجل الكشف عن خططهم المستمرة القائمة على إبادة المتحضرين ليس ذلك إلا "تعذيباً مخففاً"، إنه مفيد، وأنا معه مئة بالمئة إذا أفاد في الحصول على المعلومات، نعم وفي معاقبة القيادات الإرهابية في طول العالم وعرضه واستئصالها"[4].

وبروس التي تخلط بين الانتحاريّين والمدنيين في العراق، تبدو غافلة عن حقيقة أن قليلين من سجناء أبو غريب كانوا مرتبطين ارتباطاً واضحاً بالقاعدة، متورطين في الإرهاب، أو مسؤولين عن عمليات قتل جماعية. وبالفعل فإن أكثريتهم الساحقة كانت من المدنيين الذين اعتُقلوا خطأ أو خدمة لمصالح السلطة الاستعمارية على صعيد إخماد حركة مقاومة عراقية مشروعة. تسلط بروس الضوء على أن خطاب "المزاح السمج" كلي الاعتماد على اختزال العرب إلى إرهابيين محتملين، السبب الحقيقي الكامن وراء اعتقال سجناء أبو غريب. حتى حين تسوق نقداً متردداً لعمليات التعذيب في أبو غريب، تنجح بروس في ابتداع عنصرية فاضحة بالغة البشاعة في خدمة تعمية العدوان الأمريكي وإبراز البربرية العربية، إذ تقول: "يجدر بنا أن نتذكر أننا الدولة الأعظم على الأرض تحديداً لأن الأفعال التي تنحدر إلى مستوى المزاح السمج مثيرة للاستغراب، وغير مقبولة، بالنسبة إلى أكثر الناس"[5].

ثمة تحليلات أخرى صادرة عن محافظين جدد آخرين قللت بالمثل من مدى خطورة الجرائم المقترفة في أبو غريب أو أعفت الإمبرياليين الأمريكيين من مسؤولية الجنود الذين أرسلتهم لتنفيذ غزو استباقي عن طريق تجريد الشعب العراقي من إنسانيته. "أكثرية الجنود الأمريكيين محترفة، انضباطية ومخاطرة بحيواتها من أجل كسب الحرب" تقول **الوول ستريت جورنال**. ثم تخلص إلى القول بأن: "للجيش أخطاءه وعناصره السيئين، غير أنه ظل، على امتداد العقود، يبرهن على أنه أحد أكثر المؤسسات الأمريكية مسؤولية"[6]. وفي **الويكلي ستاندارد** لبل كرستول يقول رتشارد ستار إن ""تعذيب أي معتقل بمادة كيميائية" دليل افتقار إلى الإنسانية، لا إلى التدريب"[7]. **فالجورنال والويكلي ستاندارد** تبدوان، كلتاهما، مقيدتين بتأييدهما للغزو في مواجهة أدلة التعذيب. وهما لا تلبثان أن تنتهيا إلى تأييد موقف خاطئ قائم على حماية عنصرية معاداة العرب التي تتحمل النشرتان مسؤولية استثارتها على امتداد الأشهر التي سبقت الغزو وأعقبته. فالجنود الذين تورطوا في عمليات التعذيب كانوا يتصرفون بالقدر نفسه من الإنسانية التي رأوها لدى سياسيين من المحافظين الجدد بله الكُتّاب المحافظين الجدد الذين يقرأ كتاباتهم عدد كبير من الجنود بشغف.

جميع الأوهام عن تصور المحافظين الجدد للعرب تهاوت لدى نشر صور أبو غريب. فأكثرية المحافظين الجدد الساحقة ترى العرب أغبياء، برابرة، متوحشين، طفوليين ومولعين بالعنف اللاعقلاني. وما إن برز الدليل على وجود الصفات نفسها لدى الجنود الذين لا يكف المحافظون الجدد عن إضفاء صفة الأسود

عليهم، حتى تعرضت مقولات دونية العرب وحق الجنود الأمريكيين الطبيعي في تجريدهم من إنسانيتهم للانكشاف المفاجئ بل وصارت تمارس ببشاعة غير مسبوقة في التيار الرئيس من الحياة الأمريكية منذ ترشيح جورج واليس لرئاسة الجمهورية. أن يقال إن الجنود الأمريكيين كانوا يمزحون "مزاحاً سمجاً" فقط مع السجناء العراقيين كلام بالغ الدناءة حقاً، لا يختلف في شيء عن تبرير تعذيب آبنر لويما بوصفه مزاحاً خشناً تجاوز حدوده بسبب ضعف لويما الجسدي. والقول بأن الجنود في أبو غريب كانوا يتصرفون تصرفاً مناقضاً للقيم الأمريكية، العسكرية منها والمدنية، إن هو إلا تعبير عن جهل فاضح ومذهل، أشبه بتجاوز إبادة الهنود (الحمر) بوصفها نتاجاً جانبياً مؤسفاً لكرم الروح الأمريكية. فواقع تسويغ مقتل لويما على أنه مزاح سمج شديد الإثارة وتجاوز إبادة الهنود (الحمر) في الكثير من الأحيان بوصفها الثمن الضروري للتقدم يسلط الضوء على مشكلة أبو غريب الرئيسة: كما ينبغي للفضيحة ألا تفاجئ أحداً ممن يدركون مدى عمق انخراط الساسة، كتب الأطفال ووسائل الإعلام التعاونية في عمليات تبرئة أمريكا من فيض مغامراتها البائسة والخائبة.

مما يصعب تصديقه أن **اللوس أنجلوس تايمز** نشرت تعليقاً كتبته ميدج دكتر كان أنسب لـ **جندي محظوظ**. كتبت دكتر تقول: "إذا كانت الحرب جحيماً، فإن القتال كما يتم الآن ضد عصابات أعداء غير مرئية في الغالب في ملابس مدنية مختبئين بين مدنيين أبرياء - وعلى نحوٍ غير قابل للمقارنة ولو من بعيد مع الحرب الأهلية أو مع أي حرب أمريكية في الذاكرة الحديثة - يبقى نوعاً

استثنائياً من أنواع الكوابيس. يضاف إلى هذا الكابوس أننا على يقين بأن من شأن إخفاقنا في الإجهاز عليهم وهم في مخابئهم البعيدة أن يضطرنا إلى التعامل معهم عندنا هنا على شواطئنا"[8].

تنسى دكتر أن الأمريكيين في العراق أجانب، تماماً كما تبدو غافلة عن أن تمييزها بين "مدنيين أبرياء" من جهة و"إرهابيين" من جهة ثانية بلا معنى حين يوحي استخدامها للضمائر بأنها ترى جميع العراقيين إرهابيين، شرطاً مسبقاً للاهتداء إلى تبرير أخلاقي لتعذيبهم. وملاحظة أن "القوات الأمريكية كانت متحلية بقدرٍ لا يصدق من التحضر، خلال عمليات الغزو والاحتلال" تقول دكتر:

> *إضافةً إلى الدور الذي سيوكل دون شك إلى هذه الفضيحة المصطنعة في الحملة الرئاسية الديمقراطية، تقول هذه الزوبعة الفضائحية حول السلوك الوحشي لبضعة أوغاد من الشباب زمن الحرب شيئاً مزعجاً عنا بوصفنا شعباً. هذا البلد تعرض للهجوم وذهب إلى الحرب وقد يبقى فيها زمناً طويلاً لأن الإرهابيين المصممين على هزيمتنا وجدوا دعماً وسيتم تزويدهم بأسلحة أكثر خطراً باطراد في العراق وفي بلدان بعد العراق*[9].

تتوهم دكتر أن العراقيين هاجموا الولايات المتحدة مع أن جميع الأدلة المتوافرة تشير إلى أن العكس هو الصحيح. وبتجاوزها لفضيحة التعذيب على أنها "مصطنعة"، تحط من قيمة الشعب العراقي وتنشئ سياقاً أخلاقياً يوفر إمكانية اختزال العراقيين

جميعاً إلى إرهابيين متأهبين لـ "لانقضاض" على الولايات المتحدة. هذا الخلط العجيب بين الثقة وجنون الارتياب (البارانويا) هو الذي يكمن وراء رد المحافظين الجدد على فضيحة أبو غريب: أدلة زائفة على عدوان عراقي تُوظف لتبرير سلوك جرى استخدامه في إطار آخر ذريعة لجر الأمة إلى الحرب من منطلقات إنسانية.

تتمثل سمة كامنة أخرى من سمات هذا الرد المحافظ الجديد بنوعٍ من الغضب إزاء رفض العرب لسخاء محتليهم الأمريكيين. وهذا الغضب مندمج حتماً بنوع من شجب الدعاية العربية، مصدر المعلومات الوحيد المتوفر، على ما يبدو، للعرب. وفي هذا النمط من الجدل يجري تجريد العرب من أدواتهم الفكرية لأنهم يُصورون على أنهم حمقى بلا عقول يصدقون كلام قادتهم المنسق المعادي للأمريكيين بسهولة. ثمة مقالة نشرها موقع **فرونت بيج ماغ دوت كوم** للمقدم غوردون كوكولو تشكل مثالاً لمثل هذا الموقف:

> *بالطبع عبرت الجزيرة وغيرها من أجهزة الدعاية "الشارعية العربية" الأخرى عن قدرٍ كبير من الاستياء إزاء هذا الحدث. فالمقارنات القائمة على المبالغة مع النازيين، بل وحتى مع "الصهاينة" ويا للغرابة! نجدها في كل الأمكنة. نسمع أن العرب "غاضبون وهائجون". أكاديميون يساريون ودبلوماسيون سابقون متخصصون بالشؤون العربية يقولون: "انظروا، إنهم سيكرهوننا أكثر بعد الآن".*
>
> *من وجهة نظر عملية، يصعب على المرء أن يرى **كيف** ذلك. لعقود، إن لم يكن لقرون، ظلت الشعوب العربية*

مخالب للملالي في مساجدهم. كانوا دمى بأيدي طغاة وحكام دكتاتوريين متحكمين بوسائل الإعلام وبالجزء الأكبر من أفكارهم وسلوكهم. رقصوا في الشوارع ابتهاجاً لدى انهيار البرجين التوأمين. إنهم يرقصون على هياكل سيارات الهمفي المدمرة ويجرون جثث القتلى الأمريكيين في الشوارع.

إلى أن يبدؤوا بالتحلي بالحكمة والتنبه إلى حقيقة أنهم يقفون في طريق أولئك الذين يكافحون لتحريرهم، لا أتوجس من فقدان الشارع العربي لـ "نيته الحسنة" بمقدار ما أنا متخوف من العودة إلى العصر الجليدي. على المدى القصير، يبقى حقدهم من المسلمات الثابتة. ببطء، على نحوٍ منهجي، قد نتمكن من تغيير ذلك التصور الحاقد. استغرق تبلوره قروناً وقد يتطلب الشفاء منه قروناً أخرى[10].

باتت فكرة أن الشعوب المتخلفة، العالم ثالثية، دون غيرها، تتأثر كثيراً بالدعاية، إحدى المسلمات البديهية لدى أكثرية الأمريكيين. فكوكولو، مثلاً، لا ينتبه إلى أن مجمل خطابه لا يعدو كونه اجتراراً لما تلوكه آلات الدعاية الأمريكية ولاسيما الدعاية التي تقذفها أوساط البيت الأبيض ومحطة فوكس نيوز. والافتقار إلى الوعي هو، بالطبع، الصفة الرئيسة المطلوب توفرها لدى المرء كي يكرر الدعايات. وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن العرب الذين يتهمهم كوكولو بأنهم مستهلكون جهلة للدعايات يبقون، بأكثريتهم الساحقة،

أفضل فهماً للأسباب الكامنة وراء الغزو، وبما لا يقاس، من كوكولو وزملائه المتنورين. ومهما يكن فإن كوكولو يخوض معركة خاسرة، لأن أي استراتيجية لحوار بين الثقافات قائم على التفوق الصريح لأحد الأطراف لن تتمكن أبداً من تجاوز الحدة التي تم استحداث الحوار لتوليدها.

تمرد على الإهانة (يستحقون ما يصيبهم)

بالاستناد إلى السياق الفكري البليد المبين أعلاه دافع بعض المحافظين الجدد ببساطة عن تعذيب المدنيين العراقيين عبر الزعم بأن الأخيرين استحقوا ذلك. لعل أكثر هذه الدفاعات فضائحية هو ذلك الصادر عن السناتور الجمهوري الأوكلاهومي جيمس إينهوف الذي صرح أمام جلسة مجلس الشيوخ الأمريكي قائلاً: "ربما لست وحدي على هذه الطاولة في الاستياء من الغضب أكثر من امتعاضي إزاء المعاملة فهؤلاء السجناء، كما تعلمون، ليسوا هناك بسبب اقترافهم مخالفات مرورية. إذا كانوا في القسم آ/1 من الزنزانات أو في ب/1، فإن هؤلاء السجناء قتلة، إرهابيون، عصاة متمردون. ربما كانت أيدي العديد منهم ملطخة بالدم الأمريكي، ونحن هنا شديدو الاهتمام بمعاملة هؤلاء الأفراد"[11]. وقد أضاف إينهوف أن "كثيرين من الشعب الأمريكي لا يعرفون أي حيوانات هم أولئك الناس"[12]. وفي مقابلة مع صاحب اليو إس تودي والتر شابرو بعد بضعة أيام من تعليقاته استشهد إينهوف بمقتل نيكولاس بيرغ زاعماً أنه "يبين نوعية الناس الذين نتعامل معهم ومدى اضطرارنا إلى انتزاع المعلومات من نزلاء الزنزانات هؤلاء"[13].

يعبر إينهوف الذي تصفه **النيو ريببليك** بأنه "أحد أغبى، أعضاء الكونغرس، عن أسوأ أشكال عنصرية معاداة العرب التي يمكن تصورها (وهو شكل واسع من الانتشار لأن الفلسطينيين كثيراً ما يُلَقَّبون بـ "حيوانات قذرة" في معرض دون إيموس في تشرين الثاني/نوفمبر 2004). ومثل جل أنماط العنصرية الأمريكية فإن هذا الخطاب مستند كلياً إلى الخيال (70 إلى 90 بالمئة من السجناء العراقيين أوقفوا، بشهادة ضباط استخبارات التحالف العسكرية، خطأ). والخيال الذي يستند إليه هذا الخطاب هو الآخر يكمل برامجه الإيديولوجية الأوسع بما فيها دمج الكنيسة بالدولة، تمكين إسرائيل من ضم الأراضي المحتلة، واحتلال العراق إلى أجل غير محدد. وفي مخطط إينهوف الفكري ما من عراقي إلا ويمثل جملة الأخطار المتخيلة التي يجسدها سجناء أبو غريب الذين عُذبوا، شُوهوا، وقُتلوا على الرغم من أنهم، يجب ألا ننسى، هم المطالبون، حسب نظرة إينهوف إلى العالم، بتبرير سلوكهم أمام سجانيهم.

لعل الأهم هو أن فرضية إينهوف القائلة بأن كل من هو في السجن يجب أن يكون مذنباً تترافق مع نمط خاص من عنصرية فاعلة منذ زمن طويل في الولايات المتحدة. يبدو، إذن، أن الولايات المتحدة قد قامت، بالفعل، بتصدير بعض قيمها إلى العراق، لأن الجنود، إذ جرّدوا السجناء من إنسانيتهم وعذبوهم، وكثيرون منهم جُرّموا بالاستناد فقط إلى معيار عنصري معتمد لدى سجانيهم، كانوا منخرطين في تقليد أمريكي عريق قابل للتفسير الآني من قبل نسب بالغة الضخامة إلى حد الإزعاج من الجاليات الزنجية، الهندية (الحمراء) والاسبانية. وبالمثل فإن إينهوف يتصرف تصرفاً

أمريكياً جداً حين يبرر التعذيب عبر الاستشهاد بلا إنسانية الضحايا الذين يتجردون من جميع حقوقهم لحظة احتجازهم تماماً كما تشجع الأداة الفلسفية لجهاز السجن.

نحن في أبو غريب بصدد مثال لسلوك كولونيالي جوهري: يُقْدم المحتل على ممارسة أعمال عنف مرعبة مع الإصرار على صياغة قوانين تشرعن تلك الأعمال وتجرم أي عنف قد يقع على صعيد المقاومة. يبقى المحتل حريصاً على تجريم الأفعال التي يعلم بأنها ستكون حتمية مثل عمليات السلب والرجم بالحجارة. يقوم المحتل بفرض نظام حقوقي غريب على المستعمَرين (بفتح الميم) ويطبقه بالقوة، دون الإفادة من التعليم. يبادر المحتل إلى تجميع أعداد هائلة من المستعمَرين (بفتح الميم مرة أخرى) وتصمهم بالإجرام والإرهاب. وما إن يتم وصمهم بأنهم دون البشر حتى يجري تعريض هؤلاء لألوان التعذيب والإذلال. إن عنف المحتل يبقى مشروعاً. وإذا ما كشف أهل المحتل عن حقيقة التعذيب فإن فضيحة وجيزة ستتبع ولكن ساسة الاحتلال سيسارعون دون إضاعة الوقت إلى عقلنة سلوك هذا المحتل بوصفه هفوة صغيرة في زحمة رسالة مجيدة. لن يلبث الإخضاع الحقوقي للمستعمَرين أن يزداد حدة. وسيطل السجن بنظر أهالي بلد الاحتلال رمزاً لفضاء إيديولوجي يستوعب فيه المستعمَرون بالضرورة ذنب وجودهم. إن تعذيب المستعمَرين سوف يتواصل.

كما رأينا في الفصول السابقة يصر جزء كبير من خطاب العلاقات الدولية في الولايات المتحدة على إخضاع العرب

للحساسيات الأمريكية بما يجعل من شبه المستحيل إجراء أي نقاش مثمر حول "العلاقة العنصرية" الموجودة في أبو غريب لأن النقاش سيبقى بالضرورة متركزاً على قضايا غير ذات معنى مثل ذنب ضحية التعذيب. وجهة نظر أكثر حذلقة قد تسأل عن الطرف الذي يحدد الذنب والطرف الذي يفرض الامتثال لذلك التحديد. أو قد نلاحظ أن الذنب ليس، على أي حال، ذا أهمية نظراً لأن التعذيب يتنافى، بالمطلق، مع الأخلاق، بصرف النظر عن جرائم الضحية. إلا أن وجهة النظر الأهم التي يمكن طرحها هي تلك المتعلقة بالمسؤولية أو إمكانية المحاسبة: بأي حق تقوم الولايات المتحدة، في المقام الأول، بغزو دولة ذات سيادة واحتلالها؟ من فَوَّضَها بفرض نظامها الحقوقي على العراقيين والمبادرة بعد ذلك إلى اعتقال آلاف المدنيين؟ لماذا يدعي بعض سياسييها بأن هناك حقاً إلهياً يخولهم حق انتزاع المعلومات بجميع الأساليب الضرورية في سبيل ترسيخ نجاح مهمة غير عادلة؟ هذه الأسئلة نادراً ما تُطرح، لأن العرب في كل من العراق والولايات المتحدة محصورون عادةً داخل الأطر السجالية التي يوفرها المجتمع المهيمن، المجتمع نفسه الذي شن الحرب التي نريد مساءلتها.

عبر إطلاق تصريحاته المثيرة للغضب، يقوم إينهوف بإطلاعنا على الوجه الآخر العنيف مئة بالمئة للنزعة الوطنية الإلزامية. فحسب نظرته العالمية، وهي نظرة مدعومة بروح استثنائية أمريكا السماوية، ليس ثمة أي عراقي على مستوى وجود إنساني يكفي لجعله أهلاً لحقوق الإنسان. وليس، بالمقابل، أي أمريكي على مستوى وجود وحشي يؤهله للتعامل الفكري والأخلاقي النديّ مع

أي عراقي. من شأن صياغة إينهوف الفجة للنزعة الوطنية الضرورية أن تشرعن الفكرة المبتذلة المتمثلة بأن على الولايات المتحدة، وفقاً لمنطقها الاستباقي المبتكر حديثاً، أن تتعرض للغزو، الاحتلال، وتغيير النظام.

إنهم أسوأ منا

لعل أحد الردود الأكثر شعبية على فضيحة أبو غريب هو الزعم بأن الجنود لم يكونوا يتصرفون، رغم أن سلوك هؤلاء الجنود الأمريكيين في السجن لم يكن مبرراً، بل وقد كان مشيناً، بالدرجة نفسها التي يتصرف بها العرب من السوء. وهذا الزعم مدعوم بالخطاب الموازي الذي يؤكد أن على الأمريكيين أن يعتزوا بأنهم كانوا شديدي الاستياء من رؤية صور أبو غريب لأن ذلك الاستياء برهان على قيمنا الاستثنائية وصدقيتنا الأخلاقية المتفوقة. وما إن يساق مثل هذا الافتراض حتى يُطرح الخطاب التالي:

نظراً لأن باقي العالم، ولاسيما القطاع المسلم منه، لا يتمتع بالنسب الأخلاقي الذي يميز الأمريكيين فإنه لا يحس بالقشعريرة عينها حين يطلع على صور مماثلة. أو ينحرف الافتراض قليلاً ليوحي بأن باقي العالم، وقطاعه المسلم على نحوٍ خاص، بات شديد الإدمان على العنف الطائش، ممارسينه وضحايا له على حد سواء، إلى درجة أنه غدا، خلافاً لحال الأمريكيين، عديم الإحساس به.

تقول **الناشيونال ريفيو**، مثلاً:

بفضل تورط عدد من الأمريكيين، أصبح أبو غريب مرادفاً لسوء معاملة السجناء وتعذيبهم - إثر عام

واحد بعد قيام صدام حسين لمدة 25 سنة باستخدامه مع سجون أخرى لتشويه، لا إذلال، لقتل، لا تعذيب عشرات بل مئات الآلاف من العراقيين. إن تفجر فضيحة أبو غريب مؤخراً يشكل نوعاً من الإطراء لكل من نرجسيتنا وحساسيتنا بأفضل ما في هاتين العبارتين من معنى: لا تبالي أمريكا إلا بجرائم الأمريكيين، وأمريكا شديدة الحرص على عد معاملة السجناء بوحشية جريمة[14].

فيما عدا اعتقاد **الريفيو** الخاطئ بأن العراقيين لم يتعرضوا إلا للإذلال والتعذيب في أبو غريب، تبقى المعاني الفلسفية لكلامها مدهشة إذ تبدو موحية بأن العرب لا يعدون "معاملة السجناء بوحشية جريمة". ومع ذلك فإن **الريفيو** تقول في الفقرة نفسها إن "أمريكا لا تبالي إلا بجرائم الأمريكيين"، مع أننا نستطيع أن نقول بيقين إن الأمريكيين مطلعون على سائر أشكال الإذلال، التعذيب، والقتل الجارية في طول كوكب الأرض وعرضه (وإن لم يكن أكثر الناس مطلعين على حقيقية أن الولايات المتحدة تساهم أحياناً في تيسير مثل هذه الجرائم). وهكذا، إذا كان الأمريكيون مطلعين على حقيقة وجود مثل هذه الأمور ولا يبالون إلا بتلك التي يمارسها أو يتعرض لها أمريكيون، فإن حجة **الريفيو** باطلة. وفقاً لمنطقها **يحجم** الأمريكيون صراحة وعمداً عن عد إساءة معاملة السجناء جريمة لأن استخدامهم الانتقائي للغضب الأخلاقي يقوض أي ادعاء محتمل للتعاطف. أما النرجسية التي تستحضرها المجلة (**الريفيو**) فلا تنطوي على أي شيء له علاقة بالقوة الأخلاقية؛

لعلها تشي، بالأحرى، بنوعٍ من التناقض الأخلاقي - المعنوي الذي يتكشف عن أبشع جوانب النزعة الاستثنائية، جانب الإيمان بأن الحياة الأمريكية، وحدها، هي التي تهم. إن النرجسية نفسها ترعى أيضاً التصور العنصري للعرب بوصفهم ميالين إلى الإذعان للعنف.

خلافاً للناشيونال ريفيو، يقارب مايكل بارون من **اليو إس نيوز آند وورلد ريبورت** الاستثنائية دون سخرية أو ظلال معاني. وطبعته الاستثنائية تقوم في الوقت نفسه بشجب النفاق العربي:

> *عن مخالفات أبو غريب ليس ثمة تباين كبير في الرأي. فجميع الأمريكيين تقريباً مستاؤون مثلهم مثل بوش نفسه. والأمريكيون يرون أنفسهم على مستويات رفيعة، وإذا ألزمنا الآخرون بتلك المستويات ولو كانوا يبررون أو يغضون النظر عن أفعال أسوأ لآخرين - مثل جملة المذابح الجماعية وعمليات التعذيب التي اقترفها نظام صدام حسين - فذلك هو الثمن الذي يتعين علينا دفعه. من الجوهري أن نحدد ما إذا كانت هذه أفعالاً منفصلة اقترفها عدد قليل من المنحرفين أم هي نتاج ممارسات من هم في مراتب أعلى في سلسلة القيادة. مأساوي حقاً أن تكون هذه المخالفات حاجبة، ولو مؤقتاً، بطولات عشرات آلاف الجنود الأمريكيين، دهاءهم وكرمهم في العراق*[15].

قبل قيام بارون بكيل المديح للطيبة الأمريكية المتعرضة دائماً لهجوم شعوب أقل شأناً، كان يستطيع أن يطرح الأسئلة التالية: لماذا

لا يبادر الأمريكيون إلى إدانة نظام السجون الأمريكي العنصري الذي لا يعدو كونه سلسلة من المباني الغالية المنشأة بأموال دافعي الضرائب لإيواء أقليات يجري احتجازها تحقيقاً للمرابح بالنسبة إلى الشركات؟ لماذا لا يشجبون المدرسة في أمريكا؟ لماذا لا يدينون التعذيب الموثق لمن هم في خليج غوانتانامو على نحوٍ غير شرعي؟ لماذا لم يكن ثمة إلا القليل من الشجب في ثمانينات القرن العشرين لعمليات التعذيب التي كانت في أمريكا الوسطى بدعم وتدريب أمريكيين؟ لماذا أحجموا عن انتقاد وحشية صدام حسين في ثمانينيات القرن العشرين؟ لماذا، بالمناسبة، يظن بارون أن أحداً لن يلاحظ أنه يتبنى نظرية طيبة أمريكية استثنائية وهو يصر، راهناً، على "تبرير" و"إغفال" القتل الجماعي لعراقيين في تسعينيات القرن العشرين والإجهاز عليهم في السجن الذي يتحدث عنه بالذات؟

تعليقاً جانبياً، لعل من اللافت أن وطنيي الضرورة من أمثال بارون يشيرون إلى الجنود المتورطين في أعمال التعذيب بالعبارات ذاتها التي يستخدمونها لوصف العرب: منحرفون، أوغاد، لصوص، حمقى، مزاجيون، حثالات. لم يكتف الجنود بالتورط في سلوك متناقض بحدة مع نظرة وطنيي الضرورة الاستثنائية إلى العالم، بل وتصرفوا أيضاً تصرفات يقرنها هؤلاء الوطنيون عادةً بالعرب. وهكذا فإن الخطاب العنصري المحتكر عادةً للعرب جرى تطبيقه على أولئك الذين عُدوا ممثلين لسلوك عربي، لا أمريكي. بنظر وطنيي الضرورة صار ممارس التعذيب وضحيته واحداً. ثمة في الأمر مفارقة مربكة: ساهم تصور وطنيي الضرورة العنصري للعالم العربي في تيسير عملية تعذيب العرب؛ وهم حين ينسبون الجلادين

إلى العرب إنما يصبحون متورطين في علمية التعذيب. يؤدي الأمر إلى جعلهم أضعف أخلاقياً من الضحايا العرب المتخيلين لعنصريتهم.

لاحقاً يقول بارون إن "خصوصية أمريكا تمثلت بحسن حظها في تأكيد تلك المثل العليا والسعي إلى تبنيها قبل الآخرين، وامتلاك حق، وبالتالي واجب، التبشير بها في طول العالم وعرضه"(16). يقوم بارون باستحضار إحدى الصيغ التقليدية للعنصرية الأمريكية حين يزعم، رغم الأدلة المناقضة، أن الولايات المتحدة استثنائية الشجاعة والدهاء في حين أن أولئك الذين تخضعهم الولايات المتحدة غير جديرين بالثقة وفاسدون. ليس هذا الزعم إلا تكراراً بليداً، تافهاً وغبياً لسلسلة قيم كولونيالية قديمة قدم الزمن، وهو شديد الإرباك لأنه يتظاهر بالجهل لتسليط الضوء على قوة أخلاقية مزعومة. ومع ذلك فإن بارون يظل يداور ويناور. يبدو أن زميله مورتيمو بي زوكرومان أوفر حظاً في التقاط ما يحاول قوله في الحقيقة:

> *يضيف شريط فيديو قطع رأس نيكولاس بيرغ صفحة أخرى من الرعب والقسوة إلى سجل المتعصبين الإسلاميين. "شر خالص" عنونت النيويورك ديلي نيوز صفحتها الأولى؛ "إساءة معاملة سجناء على الطريقة العراقية" كتبت البوسطن هيرالد. إنها تميط اللثام عن ثقافة "يتفوق فيها الحقد على الخبز" حسب تعبير سينثيا أوزيك من الوول ستريت جورنال. إن ثقافة*

تمجد موت الأبرياء تسلط الضوء على حقيقة أولئك الذين نحاربهم ولماذا . إننا في مواجهة أناس محرَّضين على كتب الغريزة الإنسانية الأعمق والأرسخ، غريزة الحياة، أناس مستعدين لأن يقتلوا أنفسهم (ينتحروا) من أجل الإجهاز على أكبر عدد ممكن من المدنيين الأبرياء. أما ثقافتنا التي تهلل للحياة وتحتفل بها، فيجري إغراقها في بحر من الأوهام والألغاز[17].

أكثر من مجرد تفاحات فاسدة

ثمة وسائل إعلام تعاونية معينة نجحت في الذهاب إلى ما هو أبعد من التفسير السخيف القائل بأن فضيحة أبو غريب ناجمة ببساطة عن وجود عدد من التفاحات الفاسدة. **فالنيوزويك** تقوم بوصف الصورة التي تُظهر الرجل المربوط بالرسن عارياً واقفاً على صندوق وذراعاه ممدودتان مع تدلي زحمة أشرطة من أصابع قدميه ويديه وعضوه التناسلي. إن الصورة تكذّب المزاعم القائلة بأن السجانين ممارسي التعذيب تصرفوا وحدهم "لأن الممارسة المعروضة في تلك الصورة ليست إلا طريقة تعذيب عجيبة لا يتقنها إلا المخضرمون من منتسبي سلك التحقيق والاستجواب"[18]. يقول خبير تعذيب يدعى داريوس ريجالي: "إنه تعذيب مألوف ومعتمد. يعرف باسم "فيتنام". غير أنه ليس معروفاً على نطاق واسع. صحيح أن جنوداً أمريكيين عاديين أقدموا على هذا، غير أن أحداً علّمهم"[19].

تلاحظ **النيوزويك** أن بعض صور أبو غريب تميط اللثام عن استخدام تقنيات مقررة رسمياً على "أعلى المستويات الحكومية"

وأن "بوش" ومعه وزير الدفاع [دونالد] رمسفلد والمدعي العام جون آشكروفت بادر، التماساً لاستباق تكرر 9/11، إلى توقيع نظام سري للاحتجاز والاستجواب ما لبث أن فتح الطريق أمام مثل هذه الأساليب"[20].

وبالمثل فإن **التايم** تقول:

هذا هو المظهر الذي يتبدى به أمر [التعذيب]، مفصولاً عن، ومضافاً إلى الوحشية الموثقة في سجل أبو غريب: فمنذ 9/11، وحسب كلام رسميين أمريكيين وسجناء سابقين، ظل المحتجزون تحت إشراف الولايات المتحدة في كل من العراق، أفغانستان، وخليج غوانتانامو، كوبا، كما في مواقع أخرى غير معلنة، يتعرضون للتعرية، وإلباس القلانس، الحرمان من النوم والنور، والإجبار على الوقوف أو الجلوس في وضعيات مؤلمة لفترات زمنية مديدة. بعضهم جُر. الإذلال الجنسي ليس أمراً غير مسموع به. حتى مكتب السجون الاتحادي أدلى بدلوه في هذا المشروع. يقول تقرير المفتش العام في وزارة العدل إن معتقلين مسلمين في محطة الاحتجاز المركزية ببروكلين النيويوركية تعرضوا بعد 9/11 لسوء المعاملة الجسدية واللفظية من جانب بعض أفراد جهاز العاملين في المحطة. في الوقت نفسه كانت ثمة، أقله، 32 ومحاولة انتحارية من قبل معتقلي غوانتانامو،

وأحد أولئك الذين حاولوا الانتحار دخل في حالة اللاوعي. في ثلاث مناسبات خاضعة حالياً للتحقيق من جانب وزارة العدل هناك محتجزون قضوا خلال، أو بعيد، تحقيق السي آي إيه (CIA) معهم[21].

إن تقريري **النيوزويك والتايم**، اللذين يحْسِنان صُنْعاً إذ يكشفان عن حوادث تعذيب أخرى، لا يذهبان إلى ما هو أبعد من الريبورتاج الصحفي للغوص في مساءلة سياق أبو غريب. فذلك السياق مستمد من تاريخ طويل للتعذيب الأمريكي في آسيا، أفريقيا، وأمريكا الشمالية، إضافةً، خصوصاً في الأزمنة الأخيرة، إلى أمريكا اللاتينية. كذلك يتكرر التعذيب في السجون ومخافر الشرطة في طول البلاد وعرضها. وأي رأي يقول إن أبو غريب لم يكن إلا انحرافاً صاعقاً ليس، إذن، إلا بائس السذاجة وراسخ التعصب القومي. فمجرد وجود مدرسة الأمريكتين برهان كافٍ على أن التعذيب طالما كان جزءاً من السياسية الخارجية الأمريكية. يضاف إلى ذلك أن وجود عنصرية معادية للعرب عميقة الجذور في دولة تسودها النزعة المسيحانية والخوف من الإرهابيين أدى إلى خلق شروط مثالية لتسويغ تعذيب العرب أخلاقياً.

وإتيان تقرير **التايم** على ذكر محطة توقيف بروكلين مهم لأنه يبين أن المرء لا يتعين عليه أن يذهب إلى العراق بحثاً عن أمثلة عن التعذيب الأمريكي. فعمليات تعذيب العرب والمسلمين كانت جارية على قدم وساق وعلى نحوٍ متكرر بتزايد مطرد في الولايات المتحدة منذ 9/11. في بروكلين بالذات، ادعى أحد النزلاء السابقين أن

السجانين دسوا مصباحاً وقلم رصاص في مستقيمه، بأسلوب يذكر بمدى بشاعة تعذيب آبنرلويما. وفي مثال آخر جرى صفع أحد النزلاء وتكرار ضربه بأحد الجدران من باب ممارسة الرياضة. ومايكل إيسيكوف من **النيوزويك** يكشف النقاب عن أن هناك "أكثر من 300 ساعة أشرطة فيديو سرية من أحد مرافق السجون الأمريكية في بروكلين النيويوركية حيث تم احتجاز عدد كبير من الموقوفين العرب والمسلمين أشهراً بعد 9/11. تظهر الأشرطة، حسب كلام محققين اتحاديين، صور سجانين يصفعون السجناء بالجدران، يلوون أذرعتهم وأرساغهم ويخضعونهم لعمليات تفتيش تعرّي مهينة حيث تم إجبار سجناء ذكور في بعض الحالات على الوقوف عراة أمام سجّانات؛ وفي حالات أخرى كان السجانون "يضحكون، يتبادلون النظرات الموحية ويحدثون أصواتاً مثيرة للسخرية"[22].

من الواضح أن هذا النمط من السلوك يوازي ما حصل في أثناء عمليات التعذيب في أبو غريب، ويشير إلى وجود تراث عريق من احتراف تجريد العرب في الولايات المتحدة من إنسانيتهم، تراث يغتني بخرافة الاستثنائية الإلهية ويؤطّر بواجب رباني يقضي بالحض على المحنة. نظراً لتصوير العرب على نحوٍ كارثي في وسائل الإعلام الأمريكية خلال الجزء الأكبر من قرن كامل من الزمن، علينا ألا نفاجأ حين نرى جنوداً شباباً متمتعين بالسلطة يسيئون معاملة من هم في قبضتهم. إن مقالاً بقلم جو كلاين في **التايم** يفصّل ببلاغة أن أبو غريب لم يكن انحرافاً على الإطلاق:

لاشك إن الإيمان يقود إلى الغطرسة الأخلاقية، سَقْطة جميع المتدينين وغلطتهم المثيرة للسخرية. يؤكد بوش أننا متواضعون أمام الرب. قد لا نعرف مشيئته. غير أننا "نعلم" أنه "سبحانه" في صف العدالة - ونحن نحدد طبيعة هذه العدالة. حقاً، نستطيع أن نتلاعب بكلمات معينة مثل العدالة والشر كما يحلو لنا دون أي حرج أو خوف من عقاب، أن نجرد حملات جرارة لـ "خدمة قضية العدالة" في بلدان أخرى ونبقى شديدي الثقة بأننا على صواب إلى درجة أن أي قدر ضئيل من الندم - من الاعتذار عن فظاعة ما - يصبح أزمة رئاسية. قال بوش عن فضائح التعذيب: "هذه لا تمثل أمريكا التي أعرفها" وكأن الجنود بريئون من إغراءات السلطة المطلقة التي كانت الوباء الذي يصيب جيوش الاحتلال منذ بداية الزمن[23].

وبعد ذلك يكتب كلاين أن "عصمة مقلقة، غير محددة ظلت تميز هذه الإدارة من البداية، وهي عصمة لم تبق مقتصرة على الرئيس. فإحساس بوش المحموم بالحرب بين الخير والشر ما لبث أن تعزز بالأوهام الفكرية والنظرية لعدد من المحافظين الجدد من أمثال لويس ليبي وبول وولفوفيتز، مستشارَيْ بوش الأقوى، ديك تشيني ودونالد رامسفلد"[24].

أولئك الذين يتوقعون أعمدة نقدية من مايكل بارون ومورتيمر بي زوكرمان عن أعمال التعذيب الأمريكية الموثقة في بروكلين،

غوانتانامو، وأفغانستان سيصابون بالإحباط الشديد، لأن الرجلين يجسّدان دون أي زلل سقطة المتدينين المثيرة للسخرية.

ضحايا أخلاقيات مجنحة

طالما تأكد أن التعذيب، أي تعذيب، مسبوق، بالضرورة، بعملية تجريد من الإنسانية. حتى أفضل تعليقات التيار الرئيس على فضيحة أبو غريب تخفق في إجراء المعاينة الصحيحة لعملية تجريد العرب من إنسانيتهم هذه الجارية على قدم وساق في طول الولايات المتحدة وعرضها. فعملية التجريد من الإنسانية هذه تتم في الأفلام السينمائية، في نشرات الأخبار، في البرامج التلفزيونية، وفي الاستعراضات الخطابية. أكاد أقول إنها كانت أول الأسباب الكامنة وراء نشوء البيئة التي جعلت حصول التعذيب في العراق حتمياً. إن العنصرية الوبائية، النزعة الوطنية الضرورية، والأصولية الدينية التي ناقشناها في الفصول السابقة اضطلعت جميعاً بأدوار معينة في غسل أدمغة الشبيبة الأمريكية ودفعهم ليس فقط إلى غزو إحدى الدول العربية، بل وإلى اختزال مواطني تلك الدولة إلى صورة عصابات وأوغاد كاريكاتورية مجردة.

لم يكن المرء بحاجة إلى أي ذكاء خارق ليدرك أن تعذيب العرب كان وشيكاً. ثمة مادة في **النيوزويك** لكل من تيم لاهاي وجيري جنكنز تلاحظ على نحوٍ عابر أن "كتب سلسلة **لفت بهايند** (متخلف عن الركب) مفضّلة لدى الجنود الأمريكيين في العراق"[25]. وكما رأينا في فصول سابقة فإن العرب يجري تصويرهم في تلك الكتب بوصفهم عقبات كأداء في طريق تحقيق خطة الرب. حتى في الروايات

العلمانية يمكن أن يرد العرب كما لو كانوا متوحشين لابد من إخضاعهم بالقوة للحكم المسيحي. يلاحظ نيكولاس دي كريستوف من **النيويورك تايمز** معلقاً على مثل هذه الروايات أن من "بواعث القلق أن نجد التطهير العرقي محتفى به وكأنه أسمى آيات التقوى"[26]. مقلق بالمثل أن يكون جنود مكلَّفون بتنفيذ مهمات إنسانية مزعومة عاكفين على قراء كتب ترى النزعة الإنسانية متمثلة باجتثاث المسلمين من جذورهم.

غير أن هناك أيضاً إيديولوجيات أخرى تؤدي إلى خلق أجواء عنصرية جعلت التعذيب وشيكاً. ثمة مقالة مذهلة بقلم برايان ويتكر في **الغارديان** البريطانية تسجل أن مادة عنصرية لئيمة علمية زائفة بعنوان **العقل العربي** تأليف الراحل رفائيل باتاي، ليس فقط "إنجيل غاسلي الأدمغة المحافظين الجدد، بل هو أيضاً دليل الجيش الأمريكي للتعرف على سلوك العرب"[27]. يبين ويتكر أن "الكتاب أنموذج كلاسيكي للنظرة الاستشراقية التي تسعى، عبر التركيز على ما أطلق عليه إدوارد سعيد اسم "آخرية" الثقافة العربية، إلى بناء الحواجز التي يمكن توظيفها لاحقاً لأغراض سياسية"[28]. يعكف الكتاب على تقديم وصف تفصيلي صريح للعرب قائلاً دون مواربة إنهم كسالى، مهووسون جنسياً، عدوانيون مسعورون لا رجاء في شفائهم، ومؤمنون إيماناً أعمى بثقافة قائمة على الشرف. يرى ويتكر إن "الكتابة عن العرب، بدلاً من الزنوج، بهذه اللغة تبرز الفرق الصارخ بين التشهير العنصري من جهة والعمل البحثي المثير للإعجاب من الجهة المقابلة"[29].

لعل الفقرات التالية المقتبسة من مقالة ويتكر تلقي الضوء على تأثير كتاب **العقل العربي** في الجيش الأمريكي:

*برأي أحد الأساتذة في إحدى الكليات العسكرية الأمريكية، "ربما كان" كتاب **العقل العربي** "الكتاب الأكثر شعبية والأوسع تداولاً عن العرب في الجيش الأمريكي". حتى أن الكتاب يُستخدم كتاباً مقرراً بالنسبة إلى ضباط مدرسة جون إف كندي الحربية الخاصة في فورت براغز.*

من بعض النواحي يسهل فهم جاذبية الكتاب في الجيش، إذ يقدم صورة متجانسة سطحياً عن العدو العربي وعن عيوبه الشخصية المفترضة. كما أنه سهل الهضم، بعيد عن التعقيد الناجم عن ظلال المعاني والثغرات، ويورد عدداً كبيراً من الاقتباسات الطرية، من المشاهد الجنسية المثيرة، دون أي رطانة أكاديمية.

*مات باتاي في 1996، إلا أن دار هاثرلاي للنشربادرت في 2002 إلى إنعاش كتابه (يا له من توقيت مناسب للحرب في العراق!)، وإعادة طبعه مع مقدمة مفعمة حماسة بقلم نوفل "تكس" دي آتكين، وهو عقيد سابق في الجيش الأمريكي، ويشغل منصب رئيس قسم الدراسات الشرق أوسطية في فورت براغز. كتب دي آتكين يقول: "إنها مادة مطالعة أساسية. يشكل كتاب **العقل العربي** أساس تعليمي الثقافي"* (30).

من شأن واقع استخدام كتاب **العقل العربي** بهذا القدر من الاتساع في مجال التعليم العسكري أن ينسف أي وهم حول مقاربة العرب بوصفهم بشراً في السياسة الخارجية الأمريكية. ينبغي أن نضيف أن الصور النمطية التحقيرية التي تُضفى على العرب في **العقل العربي** لا تعكس إلا صورة العرب لدى المجتمع الأمريكي، نفس المجتمع الذي أنتج الجنود الذين يتولون حراسة أبو غريب. إنها فضيحة مجلجلة ألا يبادر إلا القليل من المنشورات الأمريكية إلى التحقيق في مسألة تعويل الجيش على كتاب **العقل العربي** بوصفه أساساً لـ "للتوجيه الثقافي". لو سبق للأمر أن تم الكشف عنه لما صُعق الأمريكيون، ربما، حين علموا بأن الجنود لم يفعلوا أكثر من إيصال منهجهم التعليمي إلى نتيجته المنطقية وبأن هؤلاء يطبقون في الميدان ما تعلموه في غرفة الصف الدراسي.

ربما لم يصل أي طرف إلى مستوى حماسة مراسل **الإندبندنت** اللندنية روبرت فيسك (بريطاني آخر متفوق في التحليل الذي يخفق فيه الإعلاميون الأمريكيون بأكثريتهم، إذا استثنينا سايمون هيرش) في مهاجمة عنصرية معاداة العرب. عن أبو غريب يسأل فيسك:

> *لماذا نحن مفاجؤون بعنصريتهم، بوحشيتهم، بفظاظتهم الصارخة ضد العرب؟ أولئك الجنود الأمريكيون في سجن أبو غريب الصدّامي القديم، أولئك العسكريون الشباب البريطانيون في البصرة جاؤوا - كما يأتي الجنود غالباً - من بلدات ومدن*

تؤوي قدراً من الحقد العنصري: تنيسي [كذا!] ولانكاشاير.

ما عدد شباب"نا" الذين هم خريجو سجون أساساً؟ ما عدد الذين يؤيدون الحزب القومي البريطاني؟ ما عدد المسلمين، العرب، "ملفوفي الرؤوس بقطع القماش"، الإرهابيين؟ يمكنكم أن تروا كيف تتوزع الدلالات.

أضيفوا إلى ذلك الهراء العنصري المسموم الطاغي على أفلام هوليود التي تصور العرب أناساً قذرين، فاسقين، غير جديرين بالثقة وعدوانيين مولعين بالعنف - والجنود مدمنون على السينما - وليس صعباً أن يُرى وغد بريطاني يتبول على وجه رجل مقنع، سادي أمريكي يوقف عراقياً مقنعاً على صندوق ويده مربوطة بالأسلاك[31].

يقدم فيسك أفضل سياقات تقويم فضيحة التعذيب في أبو غريب. لو لم تكن عنصرية معاداة العرب مترسخة في الولايات المتحدة - كما في بريطانيا، برأي فيسك - لما كان سهلاً على أي جنود شباب أن ينحدروا إلى مستنقع إساءة استعمال سلطتهم؛ ولما كان مقبولاً كما هو حاصل تعذيب البشر في أفغانستان، غوانتانامو، بروكلين، إضافةً، دون شك، إلى مرافقأخرى تؤوي معتقلين عرباً ومسلمين. إن "أبطال" تعذيب هؤلاء الموقوفين ليسوا خالين من جملة من العقد النفسية الخاصة، ولكن الشعب الأمريكي ليس معذوراً - إذا لم يكن غارقاً في أوحال اللامبالاة والعنصرية - حين

يبقى صامتاً إزاء طوفان بشع من انتهاكات حقوق الإنسان. يبدو أن فيسك مؤمن بأن اللامبالاة الوقحة خارجة أحياناً من رحم نوع من العنصرية اللاشعورية:

جميعنا ضحايا أخلاقياتنا المجنحة. "إنهم" - العرب، المسلمون، "أصحاب الرؤوس الملفوفة بالأقمشة"، "الإرهابيون" - جنس آخر، أصحاب معايير أخلاقية أدنى. إنهم أناس جديرون بالتوبيخ. لابد من "تحريرهم" وتزويدهم بـ "الديمقراطية". أما نحن أفراد العصبة الصغيرة من الأشقاء فنرتدي أثواب العصمة والبراءة. نحن مارينز أو شرطة عسكرية أو عناصر من لواء الملكة وفي صف الخير. أما "هم" فيقفون مع "الشر". إذن، نحن لا نستطيع أن نقترف أي خطأ[32].

هذه "الأخلاقية المجنحة" هي التي ساهمت في إيجاد ذهنية أتاحت فرصة تعذيب الآخر القذر. غير أن هذه "الأخلاقية المجنحة" نفسها كانت أيضاً خلف جزء كبير من الرد على التعذيب. إن عدداً كبيراً من المعلقين الأمريكيين عبروا عن الذهول والغضب لحظة الكشف عن الصور ثم ما لبثوا أن وظفوا ذلك الذهول والغضب للدلالة على تفوق الأمريكيين، معيدين بذلك اكتشاف ثقافة الأخلاق المعصومة التي ساهمت في إنتاج التعذيب في المقام الأول.

تلخيصاً: دوام الإذلال

يبقى الإذلال دائماً. لا يعني هذا أن المرء ما إن يتعرض للإذلال مرةً حتى يصبح محكوماً بالذل إلى ما لا نهاية. بل لعل المعنى هو

أن ذكرى ذلك الإذلال لن يتلاشى أبداً. ستبقى مع الذي تعرض للإذلال حتى الموت. تلك هي حالة المدنيين العراقيين في أبو غريب الذين جُردوا من كراماتهم على أيدي جنود قطعة عسكرية مدعومة من بلد ذي تاريخ طويل، على صعيدي التجارة والسياسة الخارجية، في إذلال العرب.

مع أن صور أبو غريب - والله وحده يعلم كم عدد الصور الأخرى المشابهة لأحداث جرت في أمكنة يتعذر عدها صاعقة حقاً من حيث تصويرها لآيات المعاناة واللا إنسانية، فإنني أجد رد أكثرية الأمريكيين على الصور صاعقاً بالمثل، بل وباعثاً على الحيرة والارتباك. ففكرة أن أبو غريب لم يكن إلا انحرافاً أقدمت عليه مجموعة معزولة من جنود مضلّلين منطلقين فقط من دوافعهم الغريزية المريضة تشكل إهانة لكل من يتوفر على ذرة من الأمانة النظرية والأخلاقية. فأبو غريب لم يكن إلا جزءاً من نظام قائم على التعذيب وسوء المعاملة نابع من الإصرار على تجريد كل من يُكتب عليه أن يكون معادياً للولايات المتحدة من الإنسانية - بمعنى كل من يكون خصماً للشركات الطامعة في التحكم بالأسواق والمستاءة من كل من يحاول الوقوف في طريقها. كان تعذيب أبو غريب منهجاً. من المؤكد أن هذه الحقيقة لا تبرئ الجنود الذين اقترفوا جريمة التعذيب، إلا أن هؤلاء لا يلامون إلا جزئياً. فأي مؤسس لعنصرية معاداة العرب - وما أكثرهم في الولايات المتحدة! - يتحمل أيضاً جزءاً من المسؤولية. كذلك لن يكون أنصار نظرية الانحراف بعيدين عن المسؤولية لدى حصول التعذيب من جديد - وهو سيتكرر بالتأكيد.

إن الصور التي تبين ببشاعة فائقة مدى إذلال العرب تشير في الوقت نفسه، مجازياً، إلى طبيعة العلاقة الراهنة بين الأمريكيين والعرب. يجب على الدوام، بقاء العرب خاضعين جسدياً ومادياً للأمريكيين. وإن كان الأهم وجوب بقائهم المستمر خاضعين عاطفياً وذهنياً. فالمقاومة العراقية للاحتلال الأمريكي تعد، إذن، إرهاباً بصرف النظر عن استراتيجيتها أو جذورها. أما استنكار العرب للاجتياح فلا يلبث أن يصبح نظرية مؤامرة. والشبكات الإخبارية العربية تسخر منها محطة فوكس نيوز بوصفها أبواق دعاية. أي عربي تحت الوصاية الأمريكية معرض للاعتقال بالاستناد إلى ذرائع قانونية عنصرية مكشوفة ومتعسفة. والتعذيب الأمريكي لمدنيين يجري تحويله إلى لعبة أخلاقية أخرى تحتكر فيها الولايات المتحدة دور الريادة والقيادة.

أفترض أننا نستطيع استحضار ما هو واضح لنقول إن العرب لا يتوفرون على أي دور أخلاقي وفكري في ثقافة التحليل السياسي التي أوجدتها الولايات المتحدة وتحافظ عليها. غير أننا لا نريد أن نضيع المسألة الأكبر. فروح الإنكار العميقة لدى الأمريكيين ستظل على الدوام تفضي إلى سلوك يدين إنكار ذلك النوع من الجرائم التي يفترض ألا يقترفها سوى من هم دون البشر. أرجو للمذلة الناشئة عن تحولهم إلى ما يمقتونه ألا يتلاشى أبداً.